الفصل الثاني

التعليم الجامعي بين مقتضيات التكوين العلمي والضابط الديني

العلوم البيولوجية والطبية أنموذجا

حربوش العمري[1]

مقدمة

إنّ التساؤل عن مفهوم التكامل المعرفي يثير مشكلة (وجودية) حقيقية، وذلك راجع إلى أن هذا المفهوم متطور من جهة، ومرتبط بالواقع من جهة أخرى. فلقد شهد الفكر الإنساني حتى قبل أن يصبح أكثر تنظيماً مع فلاسفة اليونان، ميلاً إلى النظرة الشمولية والكلية للوجود، فهذه المدرسة الفيثاغورية التي عرفت مساهماتها وإبداعاتها في مجال الرياضيات والعلوم، قامت في الوقت نفسه على ترسيخ عقيدة الأورفية التي تدعو إلى تطهير النفس من كل الشرور والارتقاء بها إلى الفضائل،[2] فتميزت الحضارة اليونانية بالطابع العقلي العلمي، وفي الوقت نفسه بالطابع الصوفي الروحي العرفاني. ويتجلى هذا التزاوج بين المادي والروحي الذي يعبر عن التكامل المعرفي أكثر، في الحضارة الإسلامية

(1) ماجستير في الفلسفة، يعمل أستاذاً جامعياً بجامعة فرحات عباس/ سطيف الجزائر. البريد الإلكتروني:philotoufik1962@yahoo.fr

(2) كرم، يوسف. **تاريخ الفلسفة اليونانية**، بيروت: دار القلم، 2008م، ص، 35.

obeikandl.com

العربية، وفي نشاط علماء الإسلام، سواءً أكانوا مُحَدّثين، أم فقهاء، أم أصوليين أم تجريبيين؛ فابن سينا كان طبيباً وفيلسوفاً، وله في الأدب والشعر والسياسة والأخلاق وغيرها؟ وهل يمكن نكران ما توصل إليه ابن رشد من التوفيق بين الحكمة والشريعة؟ أليس هذا دليلاً على أن ديننا الحنيف يتسع لكل شيء لا يخالف الشريعة.

إذا كان التعليم في جميع أطواره، والتكوين الجامعي خاصة، والبرامج المعتمدة في البلدان الغربية، يهدف بالدرجة الأولى إلى تكوين إنسان قادر على العمل في كل الظروف، وفي كل مكان (أطباء بلا حدود، جنود بلا حدود، إلخ)، إيماناً منه بأن صفة الإنسانية هي الصفة العالمية، أو الكونية؛ فإن العالم الإسلامي يسعى إلى أن يكون الهدف هو تكوين إنسان مسلم وليس إنساناً فحسب، إيماناً منه بأن هذه الخصوصية هي التي تمنح الإنسان صفة العالمية. ومنه دأب علماؤنا ومفكرونا في البحث عن أفضل السبل لتحقيق هذه الصفة في الإنسان المسلم، فكان التكامل المعرفي أحد المفاهيم التي رأى فيها باحثونا الوسيلة لتحقيق تلك النظرة التوحيدية الكلية، والنظرة الإسلامية السامية المنطلقة من وحدة المعرفة وشمولية التربية؛ إذ ربما من الممكن، بل وحتى من الضروري في مستوى معين، أن نقوم بفصل مواضيع المعرفة عن بعضها، ولكن ذلك لا يجيز لنا تصورها على أنها منفصلة بالفعل في بعدها الوجودي، أو في سيرورة إنتاجها من قبل الذات البشرية العارفة.

ولسوء الطالع، لم يجد النقاش الاجتماعي حول العلوم صدى في التكوين العلمي الجامعي، خاصة منه التكوين البيولوجي الطبي، وهذا ما نلاحظه في طلبة هذا التخصص، الذين يفتقدون الشعور بالعلاقة وبنقطة الالتقاء بين العلوم الوضعية التي يتلقونها وتكوينهم الديني العقدي وطبيعة مجتمعهم، فأين يُلزمون بممارسة مهاراتهم وكفاءاتهم الناتجة عما تعلموه من هذه العلوم؟! وبهذه الكيفية يتنكر كثير من طلبتنا للثقافة الدينية الإنسانية، والإسلامية منها؛ لأنهم يؤمنون

بأن التكوين العلمي هو تكوين مضاد للثقافة بحكم اختلاف طبيعة كل منهما، وهم عندما يتنكرون لهذا الإرث، يكونون قد تجاوزوا كل الاعتبارات الإنسانية الأخلاقية والدينية.

لقد عالج الإسلام مفهوم الصحة ورأى بأنها ليست الخلو من المرض أو العجز فحسب، بل هي تكامل بين الصحة الجسمية والصحة النفسية والصحة الاجتماعية. والطبيب المسلم يستمد قيمته من الأساس الأخلاقي والإنساني الذي عملت الشريعة السمحاء على تقريره حتى تكتمل صورته؛ وتاريخ الطب الإسلامي يثبت ذلك.إن محاولة إيجاد سبل للارتقاء بالطالب المسلم في تخصص البيولوجيا والطب، إلى مستوى العمل النبيل الذي ينتظره وهو التطبيب، يدعونا إلى التأمل والتفكير في السؤال الآتي: ما الطريقة ومنهج العمل اللازمان لإعادة توجيه التكوين الجامعي، ليتحقق نوع من التكامل المعرفي بين متطلبات التكوين العلمي والأساس الإسلامي الأخلاقي والإنساني؟ هذا ما سأحاول الإجابة عنه، وسيقتصر حديثي على التكوين البيولوجي والطبي (العلوم البيولوجية والطبية) وكيفية تدعيمه بما يقتضيه، بوصفه تخصصاً مهماً في حياة الفرد والمجتمع، من اعتبارات أخلاقية مستمدة من ديننا الحنيف. وذلك من خلال التركيز على الأهمية التي يعقدها الدين الإسلامي للطب، حتى نثبت ضرورة العمل على الأخذ بها، مروراً بتصور المجتمع الغربي لفكرة التكامل المعرفي. ولكن، في شكل مختلف؛ لأن نظرتهم السلبية للدين تدفعهم إلى البحث عن عناصر مكمّلة لتكوينهم العلمي مثل الفلسفة.

أولاً: واقع التكامل المعرفي في فلسفة الغرب

لا يوجد اليوم من يدافع عن فكرة أن العلوم يمكنها وحدها حلّ المشاكل، وتجاوز العوائق التي تعترضها وتتعرض لها الإنسانية من حين إلى آخر. إنها قناعة جديدة بالنسبة إلى ما كان سائداً في السابق، من أن لا شيء يقف أمام العلم، وأنه الحل لكل مشكلة. وكان قد نتج عن ذلك تجاوز الدين، وتفضيل العلم

عليه. لقد تبنى كثير من العلماء فكرة "الفهم العلمي للكون"، وذلك من خلال تضافر كل المعارف العلمية. ولا شك في أن هذا الموقف كان نتيجة الثقة التي وضعوها ويضعونها في العلم حتى اليوم. ومذهب الفيلسوف الألماني "هايكل" (1834م–1919م) متزعم المادية العلمية في ألمانيا، أحسنُ مثال على تنكّر الغرب للدين، فقد كان من المحاربين له، وهو القائل: "أين يبدأ الدين ينتهي العلم."[3]

إن سبب ذلك، يرجع إلى أن ما تلقوه من علوم في الجامعات، لا يمدهم بالوسائل الفكرية التي تمكّنهم من مواجهة المشكلات التي تطرح عليهم، فضلاً عن أن التكوين الذي يتلقونه، يعمل فقط على مدّهم بطرق التحكم في التقنية، ومن ثمّ التحكّم في الطبيعة والسيطرة عليها، وحتى على الآخرين؛ فالعلم في نظرهم أداة سيطرة لا غير.

لكن، ابتداء من النصف الثاني من القرن العشرين، انتقل التفكير من أن العلم هو مفتاح كل شيء، إلى فكرة الخوف من العلم ومن منجزاته؛ خاصة في مجال البيولوجيا والطب؛ لما لهما من قيمة في حياة الإنسان. وقد تجلّى هذا الخوف بداية القرن العشرين حين أخبرنا فيلسوف الثقافات الألماني "أوسفالد شبينجلر" (1880م–1936م) في كتابه "أفول الغرب" أو "زوال الغرب" بأن عصر الحضارة الغربية قد انتهى، بعدما انتقد جنون الإنسان البطل.

لقد تفطّن الغرب إلى هذه المشكلة، وهي أن النظرة الوضعية العلموية فيها نوع من الإفراط، ونتج عن ذلك اصطدامهم بالواقع الذي لم يطابق تصوراتهم، ولم يعبر عن تطلعاتهم، والدليل أزمة الحتمية. وقد دفعهم هذا إلى البحث عن الأدوات التي تمكّنهم من تحقيق نوع من التوازن المعرفي من خلال مشروع التكامل المعرفي. وكان التفكير في إرجاع الاعتبار للفلسفة بشكل عام، ولفلسفة العلوم خاصة. ويبدو أن الذي جندهم لهذا العمل هو التساؤل الكانطي (نسبة إلى إيمانويل كانط) الثاني الأخلاقي، ماذا يجب أن أفعل؟ إن الضرورة الملحة

(3) Brossolet, Jacqueline and Ernst Haeckel. *Encyclopédie Universalis*. Version 6.

لبلوغ هذا الأمر، دفع الغرب إلى وضع قواعد قابلة للإدماج ضمن برامج تعليمية في كل المستويات وعلى مستوى الجامعات خاصة؛ بغية مدّ الطالب الجامعي بمختلف الوسائل الفكرية التي تمكّنه من النظر العقلاني والأخلاقي للأمور، مع أنهم لا يمتلكون الرصيد الكافي لذلك، إذا ما قورنوا بأمة الإسلام التي جمعت ثقافتها بين الدين والدنيا، وبين كثير مما عجز الغرب عن ربطه في إطار التكامل المعرفي ضمن تعليمهم الجامعي.

لتوضيح فكرة التكامل المعرفي في مجال البيولوجيا والطب، نأخذ الإجراء الذي قامت به فرنسا، المتمثل في محاولة تدعيم التعليم الجامعي بأهم رصيد فكري تمتلكه وهو الفلسفة؛ تفادياً منها في الوقوع في أزمة حضارية، والوقوع في الخطيئة الأولى، وهي العودة إلى الدين، مثلما كان سائداً في أثناء الحكم الكنسي في القرون الوسطى. نحن لا ننكر ما للفلسفة من قيمة في تقدم الشعوب. ولكن، ندرك من هذه المسألة كم كان الغرب بحاجة إلى ما يكمل عمله وهو بناء الإنسان. ونلتمس هذا التدخل الطارئ أكثر في التكوين الجامعي البيولوجي والطبي، الذي رأوا فيه الحاجة إلى التوجيه، من خلال تمكين الطلبة من إدراك البُعد الأخلاقي والإنساني للبحوث البيولوجية والطبية. وخير دليل تقرير "دومنيك لوكور"[4] الموجه إلى وزير التربية الوطنية والبحث العلمي والتكنولوجيا، القاضي بتدريس مادة فلسفة العلوم في جميع الفروع العلمية، خاصة البيولوجية والطبية منها، وتزويد طلبة البيولوجيا والطب بمختلف الطرق والوسائل التي تمكنهم من توجيهها أخلاقياً وإنسانياً، استناداً إلى بعض المفاهيم التي تمت مناقشتها، مثل مفهوم "البيوإطيقا"،[5] والتي نشأت من رفضها للأخلاق الدينية التعصبية. لقد

(4) Lecourt, Dominique. *L'enseignement de la Philosophie des Sciences : Rapport au ministre de L'Education Nationale, de la Recherche et de la Technologie*. 1999, p. 13–14.
- http://www.irem.univ-montp2.fr/IMG/pdf/Rapport_Lecourt.pdf

(5) البيوإطيقا (Bioéthique): أخلاق حياتية، أو أخلاقيات الطب وعلوم الحياة. وتزيد الصعوبة في تكييف مفهوم "البيوإطيقا" مع مختلف اللغات والأنماط الثقافية.

قال "دانيال كلهان" سنة 1993م: "أول شيء يجب على كل شخص يشارك في البيوإطيقا هو وضع الدين جانباً".[6] وهذا ما يبرز من دون شك اختلاف مفهوم البيوإطيقا عن مفهوم الدين.

إن كلمة (بيوإطيقيا) كلمة مولّدة (جديدة)، استعملت أول مرة في سنة 1971م من طرف "فان رانسيلر بوتر" الطبيب المختص في مرض السرطان في كتابه "البيوإطيقا جسر إلى المستقبل: وهي لا تعني عنده أخلاق الطب، أو أخلاق البيولوجيا، ولكنها بمثابة أخلاق تأخذ الارتباطات أو العلاقات الموجودة بين الكائنات الحية بالاعتبار. وكلمة "البيوإطيقا" تعني اليوم، فضاء متميزاً للنقاش الأخلاقي، يضمّ كل الشرائح حول توجهات البحوث الطبية والتطبيقات العلاجية التابعة لها. وعرض هذا الفضاء للنقاش يكون قد شجع على بروز مجال معرفي، تتداخل فيه مختلف النشاطات والذهنيات، وهو دلالة على تعقيد المسائل المطروحة في هذا الصدد. كما أنه تسبب في وضع مجموعة من الحدود والقوانين التي تسمح بتنظيم الممارسة الطبية والعلمية بشكل عام. وكيفما كانت معاني "البيوإطيقا"، فإن التفكير في مجال البيولوجيا، كثيراً ما يصطدم بتنوع القيم التي تميز المجتمعات ذات القيم المتنوعة.[7]

لقد تميزت "البيوإطيقا" بصفات جعلتها تفرض نفسها على الساحة العالمية لكونها:

1 – مقاربة تخص جيل العصر، والكل فيها يبحث عن لغة موحدة، وإجابات تلائم الجميع، بعيدة عن كل الاعتبارات الدينية، والثقافية والعرقية، ومحاولة بناء حوار عقلاني وإنساني يمثل الجميع.[8]

(6) Doucet, Hubert. Religiologique, Religion et Bioéthique : Réflexion sur leur relation ; Daniel Callahan. "*Why America Accepted Bioethics*." *The Hastings centrer Report*, November– December, 1993–1996.
– http://www.unites.uqam.ca/religiologiques

(7) Lecourt, Dominique. (ed.). *Dictionnaire de La Pensée Médicale*. PUF, 2004.

(8) Durand, Guy. *La Bioéthique (Nature, Principe Enjeux)*. p. 23.

2 – مقاربة متناظمة (تتعلق بعدة فروع من العلم). وعلى الرغم من أن البيولوجيين والأطباء هم المسؤولون عن هذا التطور، لكن هذا لا يعطيهم الحق في اتخاذ القرارات؛ إذ تريد "البيوإطيقا" أن تكون مقاربة لكل الأنشطة وكل العلوم، للاشتراك في البحث عن الحلول المناسبة.

3 – مقاربة تنبؤية، وهذا راجع إلى تتبعها ونظرتها في أسباب التطور، واستشرافها للأوضاع التي يمكن أن تنجم عن تأثير هذه الأسباب.

4 – مقاربة إجمالية، من حيث إنها تهتم بالمريض كلياً، جسماً ونفساً، وليس المريض فقط، بل كذلك المجتمع. فنظرتها الإجمالية تفسح المجال للجميع في المشاركة وإبداء الرأي، ووضع القواعد اللازمة، التي يتعين على كل واحد احترامها.

5 – مقاربة نسقية؛ إذ إن "البيوإطيقا" لا تهتم بحلّ المسائل الجزئية، فهي تحليل دقيق ومنطقي يتم وفقاً لمخطط ونظام بين القضايا ذات الطابع الأخلاقي، وذلك بإرجاعها إلى مبادئ أساسية واحدة، وعليه يؤسس مفهوم "البيوإطيقا" مقاربة أصيلة للواقع البيولوجي والطبي مما يؤدي إلى تعدد تعاريفها.[9]

إذن، "البيوإطيقا" هي نتيجة اتفاقيات عالمية مناهضة للتجريب على الإنسان، واستعماله أداة لأهداف سياسية تحت غطاء مصلحة الإنسان. ومن هذه الاتفاقيات: قانون "نورنبارغ،[10] الذي أقِرَّ 1947م، أو التقرير النهائي للمؤتمر الدولي عن البيولوجيا والأخلاق، الذي نظمته اليونيسكو بمدينة "فارنا البلغارية عام 1975م. ومن المنظمات العالمية في هذا الصدد نجد: (OMS) [11] و(CETM)،[12] وغيرهما.

---

(9) Ibid., p. 24– 26.

(10) قانون نورنبارغ: ملف يحتوي على مجموعة من القواعد والقوانين التي تضبط أخلاقيات التعامل مع الإنسان، وهو نتيجة مباشرة، عن محاكمة نورنبارغ بعد الحرب العالمية الثانية ضد جرائم قادة ألمانيا النازية.

(11) المنظمة الدولية للصحة Organisation Mondiale de La Santé (OMS)

(12) اللجنة الأخلاقية العالميةComites d'éthique à Travers le Monde (CETM)

من هنا يمكن استنتاج كم كان الغرب مدركاً لمشاكله، خاصة المعرفية منها، وكم كان بحاجة إلى ما يعالجها. كما أن هذه الحلول التي توصل إليها، كان لها تأثير كبير في فلسفة تعليم بعض الدول، ومنها العربية التي تبنت هذا المشروع، وهو مشروع التكامل المعرفي في مجال التكوين الجامعي، الطبي على وجه الخصوص، نذكر منها "تونس"، فقد كانت الجمعية التونسية للعلوم الطبية، تعمل دائماً على إصلاح الطب في البلاد، ففي المؤتمر الوطني الثامن والعشرين للطب 3-6 أكتوبر 2001[13]، دعا رئيس الهيئة الوطنية لأخلاقيات الطب إلى ضرورة تدريس "البيوإطيقا" وأخلاقيات الطب في معاهد الطب، كما أسست لهذا الغرض هيئة وطنية لأخلاقيات الطب بقرار من المنظمة الصحية، الذي يحمل رقم 94-1939 المؤرخ في 1994/09/19م.

وبهذا يكون أول دافع لظهور "البيوإطيقا" هو التطبيقات البيولوجية الطبية اللاإنسانية. أمّا الدافع الثاني فيتعلق بالاهتمامات والتساؤلات الجديدة التي يطرحها التطور الطبي، وهذا أدى إلى الشك في كل الأفكار التي بُنيت، وعلى نحو تام، عن الحياة والموت والكائن الحي الإنساني. وهذا ما يؤمن به الغرب، مما جعل فكرة التكامل المعرفي لديهم تتحول من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، فهي بذلك واقع وممارسة، وبها كان تميّزهم المعرفي الذي اعتمدوه دستوراً لأبنائهم.

ثانياً: التكامل بين معطيات الوحي وحقائق العلم (التكوين البيولوجي والطبي)

إن النقاش في هذه المسائل، أو تلك التي تحمل قيمة أخلاقية مثل التقنيات العلمية، خاصة البيولوجية والطبية منها، ليس فلسفياً محضاً، ويرجع ذلك إلى طبيعة المشكلات المطروحة وآثارها على الفرد والمجتمع، بل هو نقاش ديني،

(13) *Société Tunisienne des Sciences Médicales, 28ème Congrès National de Médecine Tunis (du 3 au 6 octobre 2001). www.comiteethique.rns.tn/ethique/...ET.../ETUDES_CLINIQUES.doc*

وهذا راجع إلى رؤية الدين الخاصة لمثل هذه المعضلات، وتأثيره الكبير في تفكير الناس والجماعات نتيجة القيم والمبادئ التي يحملها وتشكّل في أغلب الأحيان الأساس الروحي؛ أي العقيدة. من جهة أخرى يعدّ الدين الموجه للسلوك؛ لأنه غير منفصل عن الحياة وعن الواقع. لذا، نلاحظ حضوره دائماً في كل مسألة تمس الفرد، أو الجماعة، أو المجتمع. وبناء عليه فإن "البيوإطيقا" تشكّل المجال الجديد الذي يتيح (لرجل الدين) إبداء الرأي والحكم على هذه المسائل، ولا سيّما تأثير التقنيات العلمية في الإنسان وقيمته؛ دينياً وأخلاقياً. إن التطور في مجال التقنيات الطبية على يد غير المسلمين، لم يمنع المسلمين من معرفتها ومعرفة تأثيرها، واتخاذ المواقف الشرعية منها، بالاجتهاد والفتوى. وبالرغم من مشاركتنا القليلة في هذه البحوث البيولوجية والطبية، إلا أننا ملزمون باستعمالها وتوظيفها في حياتنا اليومية، مما يجعلنا معنيين -بطريقة أو بأخرى من بعيد أو قريب- بنتائج هذه البحوث وقيمتها وآثارها. فالمسلم الذي يستعين -اليوم- بالتقنيات العلمية التي أنتجها الغرب في مجال الإخصاب الصناعي مثلاً، ألا يعنيه الحكم الشرعي في هذا النوع من التطبيقات، كما يعنيه السفر إلى بلاد غير بلاده طلباً للعلاج؟ عموماً، فإن المواقف الإسلامية تستمد أحكامها من الكتاب والسنة والاجتهاد في المسائل التي تحفظ الدين والحياة والعرض والمال.

ومن وحي ذلك يعمل أئمتنا وعلماؤنا دائماً على رفع الحرج بوضع القواعد اللازمة التي تضبط هذه التطبيقات، عن طريق الفتوى، كما عُقدت لهذا الغرض مؤتمرات وندوات، منها ما لخصه قرار مجلس هيئة كبار العلماء الأفاضل.[14] رقم 140 بتاريخ 1407/6/20هـ حول الحكم الشرعي في بعض القضايا الطبية، كالإجهاض، وخفض عدد الأجنة، والرحم المستأجرة، وغيرها من المسائل الطبية، التي لا يتسع البحث لعرضها كلها.

(14) محمد البار: استشاري أمراض الباطنية، ومستشار الطب الإسلامي بجدة. عبد الله سلامه: استشاري نساء وتوليد http://www.muslimdoctor.org 19/07/2006م.

ثالثاً: قيمة الطب في الإسلام

يعدّ الطب أقدم نشاط إنساني؛ لأنه يرتبط بأقدم ظاهرة يتعرض لها الإنسان، وهي المرض، وهذا الأخير يستدعي العلاج. ولـمّا كان موضوع الطب هو المرض أو الصحة عموماً، والمرض خطر على الحياة والإنسان، فقد أولاه الباحثون الاهتمام اللازم في مجال التفكير الفلسفي، ولا سيّما الجانب الأخلاقي. سواء ما تعلّق بالتعامل مع المرض أو التعامل مع المريض بوصفه إنساناً؛ ذلك أن الإنسان والحياة والموت، من الموضوعات التي اشتغل بها الفلاسفة منذ نشأة التفكير الفلسفي إلى اليوم. وهذا يبرز، من دون شك، ذلك الارتباط الوثيق بين الطب والفلسفة وارتباطهما بالأخلاق.

وقد كان للمسلمين الحظّ الأوفر في إثراء هذا المبحث العلمي (الطب) من خلال توجيه أتباع الإسلام إلى طلب العلم الصحيح في أي مكان كان، فالحكمة ضالَّة المؤمن أَنّى وجدها فهو أَحَقُّ الناسِ بها. كما أدرك المسلمون أن العلوم الحياتية، ومنها الطب على الخصوص، تحتاج إلى العناية الكاملة لما لها من أهمية في حياة الأفراد. لذا، نشط علماء المسلمين في ترجمة الكتب الطبية عند أطباء اليونان، أمثال "أبقراط"، و"جالينوس" على وجه الخصوص. وقد اعتبروا هذه الكتب الأساس وسموها الأصول، ولم يكتف المسلمون بنقد الفاضلين -كما يسمونهم- مثل ما فعل الرازي في كتابه "الشكوك" على كتب: جالينوس، وابن النفيس، وعبد اللطيف البغدادي، وابن البيطار، وابن سينا... وغيرهم، بل دأبوا على تطويرها والإضافة إليها حتى خرج إلينا هذا التراث الذي ظل يدرس في أوروبا إلى وقت قريب.

وتعدّ التعاليم الصحية والأساليب الوقائية التي وردت في كتاب الله تعالى وسنة النبي ﷺ جزءاً من تعاليم الدين، فالمسلم المتمسك يتقبلها ويطبقها طاعة لله ورسوله، وقد كان ذلك من دواعي اهتمام المسلمين بالطب على وجه الخصوص. ولذا. حَظِيَ الأطباءُ فيها بالمكانة السّامِيَة لدى الخلفاء والعامة، ولو

كانوا من غير المسلمين، والتاريخ يشهد بذلك. كما حث الرسول ﷺ على التطبيب وحفظ الصحة. ففي مسند الإمام أحمد، من حديث زياد بن علاقة عن أسامة بن شريك، قال كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب، فقالوا: "يا رسول الله، أنتداوى؟ فقال: نعم يا عباد الله، تداووْا؛ فإن الله لم يضع داء، إلا وضع له شفاء، غير داء واحد. قالوا: ما هو؟ قال: الهرم.[15] وقوله كذلك: "العلم علمان: علم الأديان، وعلم الأبدان." وعلم الأبدان هنا، هو الطب. وأخبر النبي ﷺ أن كثيراً من الناس مفرط ومغبون في نعمة الصحة. وروى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال النبي ﷺ: "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ." وقال عليه السلام: "من أصبح معافى في بدنه، آمن في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها."[16] ومعنى أصبح معافى؛ أي صحيحاً سالماً من العلل والأسقام. روى الإمام أحمد في مسنده من حديث أنس أن النبي ﷺ كان يقول: "اللهم إني أعوذ بك من البرص والجنون والجذام، ومن سيئ الأسقام."

يتضح لنا جلياً مما سبق اهتمام الدين الإسلامي بسلامة البدن التي تقترن بسلامة الإيمان، وحتى سلامة المجتمعات؛ لأن المجتمع المعافى أهله من الأمراض، مجتمع قادر على العمل والحياة ونشر الدين وصد الظلم. فالطب لدى كثير من علماء الدين، نذكر منهم الإمام أبا حامد الغزالي، هو من العلوم التي هي فرض كفاية محمودة؛ لأنه علم لا يُستغنى عنه في قوام أمور الدنيا، فهو ضروري في حاجة بقاء الأبدان.[17] وما جاء في مقدمة كتاب "كامل الصناعة الطبية" لعلي بن العباس المجوسي دليل آخر على قيمة الطب؛ إذ قال: "إذا أراد الله بأمة خيراً جعل العلم في ملوكها والملك في علمائها، العلم بصناعة

(15) ابن القيم الجوزية. **الطب النبوي**، الجزائر: دار الكتب، 1988م، ج1، ص26.

(16) حديث أخرجه الترمذي وحسنه، وابن ماجه من حديث عبيد الله ابن محصن الأنصاري من: - الغزالي، أبو حامد. **إحياء علوم الدين**، بيروت: دار المعرفة، 1983م، ج4، ص16.

(17) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، مرجع سابق، ج1، ص16.

الطب أفضل العلوم وأعظمها قدراً، وأجلها خطراً وأكثرها منفعةً لحاجة جميع الناس إليها." لذا، تميّز الطب العربي الإسلامي بمبادئ أربعة، هي: التوحيد، والاعتدال، والغائية، والإنسانية.

أمّا التوحيد فهو أساس عقيدة المسلمين المتمثل في أن الله واحد، وهو الحقيقة، وأن الوصول إليه يكون عن طريق المعرفة ووسيلتها العلم. كما أن الهدف من كل الأعمال هو مرضاة الله تعالى، والفوز بالجنة عن طريق العمل الصالح وفعل الخير. والطب من الأعمال الصالحة وأفعال الخير؛ لأنه يخفف من آلام البشر وأمراضهم.

وأمّا الاعتدال فيقصد به التوازن بين الحياة والصحة الجسدية والحياة الروحية، التي تؤمن للإنسان انسجاماً بينه وبين بيئته، وهذا ما يؤدي إلى السعادة. يقول "ابن سينا" (980م–1037م): "إن المعتدل الذي يستعمله الأطباء في مباحثهم مشتق من العدل في القسمة، وهو أن يكون قد توفر فيه على الممتزج بدناً كان بتمامه، أو عضواً من العناصر بكمياتها وكيفياتها، القسط الذي له في المزاج الإنساني إلى أعدل قسمة ونسبة." ويقول كذلك: "إن الله جل جلاله أعطى الإنسان أعدل مزاج ممكن أن يكون في هذا العالم." والاعتدال هو حال الصحة. أمّا المرض فهو فساد الاعتدال، واختلال التوازن، بحيث إن أحد الأخلاط الأربعة يزداد حتى يطغى على البقية فيكون المرض. وتكون المعالجة برد الاعتدال.

وأمّا الغائية فتعني أن هناك حكمة في خلق كل مخلوق. وقد كان "جالينوس" يؤمن بهذه الفكرة بالرغم من أنه كان وثنياً. لذا، أعجب به المسلمون ولقبوه بالفاضل. أمّا المسلم فيؤمن بأن دراسة الطب تزيده إيماناً تماشياً مع قوله تعالى ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [الروم: 28]. لذا، يقول ابن رشد: "من اشتغل بالتشريح ازداد إيماناً."[18]

(18) ابن أبي أصيبعة. **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، 1965م، ص532.

وأخيراً الإنسانية التي من أبرز مظاهرها: احترام الوالدين، والمسنين، واليتامى، وأبناء السبيل، والفقراء، فضلاً عن احترام الأديان السماوية، والتسامح مع المؤمنين. وقد تمخّض عن هذه الإنسانية إقامة العديد من المستشفيات، ودور التعليم الطبية، ودور الأيتام، ودور العجزة. فالطب ليس علماً فقط، بل هو طريقة من الطرق الموصلة إلى الحقيقة الأزلية؛ أي إلى الله. وهو نوع من أنواع العبادة، وضرباً من ضروب الجهاد.

ولا شك في أن هذا الإرث العظيم، وهذه الرؤية الخاصة للإنسان المريض، وهذه الأخلاق النزيهة الرفيعة التي تميزت بها الممارسة العلمية الطبية الإسلامية، المستمدة من القرآن والسنة؛ جعل منها المادة المعرفية الضرورية لاكتمال الرؤية الإسلامية الشمولية، وخلق التكامل بين معارف الوحي والعلوم البيولوجية والطبية.

رابعاً: من النظر إلى العمل

في عالم التكوين الجامعي تطرح دائماً مسألة العلاقة بين ما نتعلمه ومجال ممارسته، وهذا يرجع إلى مشكلة تحويل المكتسبات أو المحصلات المعرفية إلى ميدان الشغل الاجتماعي. وكان من المفروض، أن يسمح لنا التكوين بإعادة استثمار هذه المكتسبات والمحصلات المعرفية في مجال العمل بطريقة سريعة وناجعة؛ لقد أصبح أمراً ضرورياً لا يمكن تجاوزه لضمان الإتقان اللازم والتعبير الصحيح عن كلفة التكوين. ومن هنا كان لزاماً علينا العمل على تطوير كفاءات المتعلمين، لتحقيق البُعد الواقعي لقضية التكامل المعرفي؛ بمعنى أن التكامل المعرفي يجد قيمته في ممارسته، من خلال اكتساب مختلف الكفاءات.

وباختصار، فإن برامج التكوين ومضامين الدراسة واختبار الطلبة، لا يكون لها معنى إن لم تكن استجابة لمشكلة مهنية اجتماعية. ونحن نعلم ما يميز الواقع من تنوع مظاهره وتغيرها، وما يصدق على الواقع يصدق بدوره على مفهوم التكامل المعرفي. علينا -إذن- إذا أردنا أن تكون طبيعة التكامل المعرفي واقعية،

أن نسعى إلى تفعيله، وليس تصويره في إطار لغوي مفاهيمي، بعيداً عن الواقع والممارسة. وعليه، فإنه يتعين على التكامل المعرفي أن يتخذ صورة حاجة المعرفة إلى الإسلام وليس العكس. ولأجل هذا الغرض، علينا وضع برنامج قابل للتطبيق بالتدرج، ولو على مستوى معين، للتأكد من إمكانية تحقيقه، وهذه جملة من المقترحات التي أراها مناسبة إذا ما أخذنا واقع التكوين الجامعي الطبي البيولوجي، خاصة في الجامعة الجزائرية، بالاعتبار:

1 – المقترحات

– تدعيم مقاييس الدراسة التي لها صلة بالموقف الإسلامي إزاء بعض القضايا البيولوجية والطبية؛ لأن هذه المقاييس تجيب عن الأسئلة الآتية: ما الحياة من الوجهة الدينية الإسلامية؟ ما دور الطب الإسلامي في تطور الطب الحديث؟ ما القواعد الأخلاقية التي تنظم ممارسة الطب؟ وهذا أمر ممكن قياساً على بعض الكليات، ككلية الحقوق مثلاً التي تتضمن برامجها جزءاً لا بأس به من الأحكام الشرعية.

– بالنسبة إلى الأطباء القدامى، يمكن تنظيم ندوات عن هذه الموضوعات؛ تحفزهم إلى استدراك ما فاتهم.

– إنشاء مجلس وطني مهمته متابعة القضايا "البيوإطيقية"، وكذا متابعة التطور الحاصل في مجال الطب والبيولوجيا في العالم، واتخاذ المواقف، وإصدار الفتاوى الخاصة ببعض الممارسات الطبية الجديدة، بحيث يصبح هذا المجلس مرجعاً أساسياً للبت في القضايا الطبية والبيولوجية، استناداً إلى الشريعة الإسلامية والقوانين.

– صياغة تقرير يوجه للجهة الوصية، التي لها القدرة على نقل هذا المفهوم من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل؛ على أن يحدد في هذا التقرير مفهوم التكامل المعرفي بحيث يكون قابلاً للممارسة، وتضبط فيه طريقة التعامل مع المحتوى الدراسي الجامعي في مختلف الفروع.

2 – العوائق

مهما بلغت هذه المقترحات من قيمة، فلا يمكنها تجاوز بعض المشاكلات التي قد تبطئ أو تلغي بعضها بعضاً:

– فمن جهة المؤسسات التعليمية الجامعية مثلاً، فإن استكمال التكوين بإضافة بعض المقاييس الضرورية، قد يتسبّب في اختلال نظام التدريس المعتمد من الإدارة، والمدعم من الأساتذة والطلبة.

– ومن جهة الأساتذة، فإن طبيعة المواد الدراسية التي يقدمونها قد لا تقبل التنسيق أو التداخل فيما بينها، مما يدفع كل أستاذ إلى الدفاع عن مواقفه نتيجة قناعات معينة، وقد يؤثر هذا سلباً في عطاء الأستاذ أو الطلبة.

– وثمّة مشكلة تتعلق بالأساتذة المتخصصين في هذه المقاييس، الذين يفترض أن يكون تكوينهم تكويناً مزدوجاً دينياً وعلمياً في آن واحد، فعليهم يتوقف نجاح المشروع.

– كما أن ثقافة الأساتذة التي لم تُبنَ على التنسيق وعقلية العمل الجماعي قد تكون عائقاً في وجه تحقيق أهداف التكامل المعرفي، وقد تتخذ هذه المواقف منحى خطيراً حين يشعر الأستاذ أو بعض الأساتذة بالحرج إذا لم يحصل التطابق المطلوب بين الرؤية العلمية والموقف الديني. ثم هناك مشكلة المقاييس المقترحة: هل تكون إجبارية أم اختيارية إضافية فقط؟

– العوائق الفكرية، سواء المتعلقة بالأساتذة أو بالطلبة أو حتى بالجهات المعنية بالبرمجة على مستوى الدولة والوزارة فلقد لمستُ من خلال تتبعي تطورات مسار التكامل المعرفي في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، إشراف مسؤولي الدولة المباشر على تحفيز العلماء والباحثين، وتذليل الصعوبات؛ نظراً إلى تبنّيهم هذا المشروع.

3 – التحديات

إلى جانب هذه المشاكلات التي قد تحول دون متابعة تنفيذ المشروع (التكامل المعرفي)، توجد بعض التحديات التي ينبغي التصدي لها وتطويعها، من مثل:

– إقناع الجهات المسؤولة عن البرمجة، بأهمية مشروع التكامل المعرفي للمنظومة الجامعية. وفي هذا السياق يتعين علينا الاتصاف ببعض المرونة، والتفاهم، والروية.

– الاستجابة للكم الهائل من المعلومات والمعارف، وتعرّف طرائق استكشافها واستيعابها؛ لأن المشكلة تكمن في كيفية خلق نوع من الانسجام، ونقاط الالتقاء بين مختلف المواد والأنشطة.

– إعطاء معنى للمهارات، حتى تلك التي لا تتماشى وعقيدة المشروع. وهذا يعني الاستفادة من خبرات الآخرين من الغرب.

– تحقيق التكامل بين المجالين: النظري والتطبيقي.

هذه بعض الاقتراحات التي تمثل في الحقيقة تحديات؛ لأن بقدر عظمة المشروع تعظم المسؤوليات والمشاكلات، وهذا يستلزم استعداداً وبذل جهد أكثر من أجل تذليل هذه العقبات.

خاتمة

أردت من خلال هذا البحث عرض وجهة نظري عن مشروع التكامل المعرفي، المستمد من مشروع إسلامية المعرفة. ولـمّا كان المشروع دليلاً على التفكير الجاد في صنع الإنسان المسلم المعاصر وتكوينه، كان لا بدّ من أن يستمد هذا المشروع مكوناته من مقتضيات الشريعة الإسلامية، دون التفريط وتجاوز الوضعيات الاجتماعية والثقافية والسياسية، التي تفرض علينا دائماً إعادة النظر في المشروع وشروط تحقيقه، والطرق والمناهج الكفيلة بإيصال الرسالة

إلى مبتغاها. فكلما كان وصفنا أشد التصاقاً بالواقع، كان تصورنا للحلول ممكناً، وكان اختيارنا لما يلائم عقلية الإنسان والمواطن المعاصر، من موضوعات الدراسة والتكوين، أسهل. ولعل تركيزي على التكوين الجامعي البيولوجي والطبي، نظراً إلى أهميتهما في حياة الناس، لا يلغي اهتمامي بجميع شعب الحياة التي تتطلب، اليوم قبل الغد، اكتمال صورتها، بتقاطعها مع فروع المعرفة ومختلف الكفاءات. فالتكوين الجامعي اليوم يستدعي أكثر من أي وقت مضى دمج المعارف، وتقريب بعضها من بعض، وهذا أمر يشتغل عليه الغرب، ولكن بصورة مختلفة؛ لأن مفهوم الدين عندهم -اليوم- لا يؤسس لقضايا العصر، فهو أمر تجاوزه الزمن. في حين أن الدين عندنا، هو الإسلام الملائم للطبيعة البشرية أينما كانت.

فمهما يكن، تبقى مجموع الاستعدادات التي تميز مجتمعاً من غيره، هي الفاصل في مدى ومقدار القدرة على تحقيق هذا المشروع. فلو أخذنا مثلاً المجتمع الجزائري، فقد لا نلاحظ فيه الاستعدادات نفسها التي يتوفر عليها المجتمع الفرنسي. فبالرغم من أن المجتمع الجزائري مجتمع مسلم، إلا أن استعداداته لتقبل نمط تكوين آخر ذي طابع إسلامي، متميز عن الطابع الغربي، أمر لا يكون له حظ وفير. لذا، نلاحظ تكريساً لمبدأ ازدواجية التعليم، أو وجود نظامين من التعليم؛ تعليم ديني، وآخر مدني يستمد أصوله ومحتواه من الغرب. إن هذه الوضعية تزيد من تعقيد مهمة تحقيق مشروع التكامل المعرفي بالصيغة التي تبنتها بعض الجامعات الإسلامية، وهذا يدفعنا إلى التفكير والبحث عن آليات وطرق ملائمة لطبيعة المجتمع المسلم، كالمجتمع الجزائري. وكذا العمل على مشروع تطوير منظومة تعليمية جامعية تستند إلى التكامل بين التكوين العلمي البيولولجي والطبي، وإعادة الاعتبار للإرث الثقافي العلمي والأخلاقي في هذا المجال، المشتق من التعاليم الدينية الإسلامية؛ كي يستجيب للحالة الاستعجالية الراهنة.

من جهة أخرى، ينبغي أن تكون هذه المواد المكملة -التي سوف تتحول إلى حقل للتفكير الجماعي- قابلة التطبيق؛ أي أن تتمكن الأسرة الجامعية من معاينة، الآفاق المعرفية والفكرية والسياسية والأخلاقية لتطور المعرفة بحرية تامة.

وكذا العمل على جعل الجامعة موسوعة متحركة مثلما عبّر عنها الفيلسوف الألماني "هيغل"، ومقراً لتطوير المعارف، ومرآة حية لتكاملها في العلم المعاصر، تدعو الطلبة إلى الانخراط العاجل في هذا المسار، وفي الوقت نفسه، تعلِّمهم كيفية توجيه تفكيرهم، مع الحفاظ على ما يميزهم بوصفهم مسلمين أولاً وعلماء ثانياً.

obeikandl.com